



# « الأم » بين قصص غوركي

بقلم أحمد محمد عطية

همته .  
وفد كتب هذه الرواية في اميركا ، بعد فراره خلسة عبر الحدود الفنلندية . في سنة ١٩٠٦ بالقبض نشرت « الأم » مسلسلـة لاول مرة ، على صفحات صحيفة امريكية ، ثم جمعت في كتاب صدر في نيويورك ولندن ، وسرعان ما تلقفتها الصحافة الالمانية والفرنسية والاطاليسية ، الثورية ، وطبعتها في ملاحق مستقلة بملايين النسخ . ولكنها لم تشر في روسيا الا في عام ١٩٠٧ ، حيث نشر الجزء الاول منها وصادرتة الرقابة القيصرية ، وفالت عنها الرقابة في تقريرها « أنها تحت على ارتكاب جرائم شنيعة ، وبؤلب العمال على الطبقات الحاكمة ، وتدعو الى الفتنة والعصيان . » وكانت مصادرة الرواية ايذانا بنشرها كلها وتوزيعها سرا . فسرت روحها بين الشعب الروسي ، مسرى النار في الهشيم .

وفي رواية « الأم » صور غوركي أجهزة الارهاب المتشعبة التي تملكها القيصرية ، ولكنه أوضح أيضا مدى صلابة المناضلين الثوريين في مواجهة هذه الاجهزة المتعددة القوة ، وان كل ضحية تسقط ، تزيد من التهاب حماس الجماهير للثورة . ان « بافل فلاسوف » عامل بسيط جاهل ، كاد ينقاد الى الهوة التي تبذلغ الشباب الروسي في سن المراهقة ، الخمر والانحلال . . . ولكن حنان امه « بيلاجيا نيلوفنا » يعيده الى صوابه فيختار طريق الثورة ، واذ اختار هذا الطريق بدأ « يخلى عن الالفاظ الجافة التي كان يستعملها في الماضي . . . فهو لا يتأنق في ثيابه ، انما يهيم أكثر فأكثر بنظافة جسمه وهندامه ، وأصبحت حركانه أكثر جدية ، وسلوكه أبسط وأقل غلظة ، وتغيرت أخلاقه نحو أمه ، فكان ينظف الارض في بعض الاحيان ، وينظف سريره ايام الاحاد ، ويحاول بكافة السبل ان يساعدها في أعمالها . . . » ، وهذه اخلاق الثوري كما يراها غوركي ، والناس يعيشون في رواية « الأم » كما في سائر قصصه ، كما في الحياة ذاتها ، يصفون ، ويسبون ، ويضربون بلا رحمة . وهو يرجع فسونهم الى قسوة حياتهم . . . فال بافل لأمه « فكري في الحياة التي نعيشها . ها أنت بلغت الاربعين من عمرك ، فما الذي عرفته ؟ ، كان أبي يضربك ، وأنا أدرك الان انه- كان ينفس عن متاعبه فيك ، كل مرارة حياته . كان هناك ما يضغط عليه ويرهقه باستمرار دون أن يدري من أين يأتي ، لقد كان يعمل كالعبد طوال ثلاثين عاما - بدأ يعمل والمصنع عمارنان ، اما الان فينتكون المصنع من سبع عمارات » . وتتردد في سطور الرواية عبارة « ان الخوف هو الذي يدمرنا ، ورؤسأؤنا يستقلون خوفنا ، فيستمررون في استعبادنا » . كلها عبارات تستنكر الخوف ، وتستبعده من نسايا المركة .

ولكن واقعية غوركي فيها اختلاط بالرومانسية ، انظر الى تلك الفتاة « نانشا » ، انها ليست من الحضيض الروسي ، ولا تقاسي - بحكم وضعها الطبقي - من مظالم المجتمع الروسي ، بل هي بانتماها الى طبقتها اذ اعداء الثورة والعمالين من اجلها ، فابوها رأسمالي يمتلك أسهما في مصانع الحديد ، وعقارات عديدة ، وكانت تعيش لذلك حياة

« لقد أنبت جوركي كيف اشتد التوتر عند الجماهير وعند ملايين الافراد ، حتى أصبح أمرا ليس الى احتماله من سبيل . وفي روايته « الأم » - وهي أعظم مؤلفاته - نستطيع ان نرى أكثر الناس بساطة من الفلاحين والعمال والجهلاء والاميين ، يجمعون ويبدلون نضحيات لا حصر لها قبل أن ينطلقوا كالعاصفة . . . »

« ستيفان زفايج »

لا يعتبر البعض رواية جوركي الشهيرة « الأم » عملا روائيا فنيا ، وانما هي في نظرهم شيء مذهبي أشبه بمجموعة صرخات أو خطب دعائية ، بينما يعدها المؤمنون بالانتماء الاديب ، خير مثال لما يجب ان يكون عليه الادب في سبيل المجتمع ، وقد خبر جوركي الحياة الروسية ، أو على الاصح فاع الحياة الروسية ، كما يحلو للبعض أن يسمي حياة العمال والفلاحين في مجتمع تحكمه الرجعية ، مجتمع ما قبل الثورة . . . وجوركي ليس كالبنا رومانسيا ، ربما كانت شطحاته الاولى وهو لم يزل يجبو في عالم الادب أقرب للرومانسية . فجوركي عاش الواسع وعاناه ، لذا فهو يرسم صورة دقيقة للواقع الروسي بأدق تفاصيله ، وقد بلا الحياة في روسيا القيصرية ، وآمن بعد طول تقلب في الافكار والمبادئ ، ان الاشتراكية هي النحل الحتمي والطبيعي الوحيد لتقدم الشعب الروسي ونيله حقوفه . وان دور الاديب الثوري هو ان يضع هذه القضية نصب عينيه ، وأن يظل في ثورة دائمة ، مهما براخت عزيمه الجماهير ، ومهما فويت قبضة الرجعية ، لقد وصل مع غيره من مثغفي روسيا الثوريين الى افئناع كامل بأن حكم القيصرية انما هو حكم ضد الشعب ، وأن الشعب يجب أن يتولى زمام أمره ، وليس هناك طريق اخر غير الاعداد لليوم الذي يطوحون فيه بحكم القيصرية الظالم ، ولهذا فان واقعية جوركي شيء جديد على الواقعية في الادب العالمي . . . فقد اعتاد الكتاب الواقعيون قبل جوركي وبعده ان يقفـسوا في مواجهة الرومانتيكية ، وينقلوا لجماهير القراء صورا طبيعية لما يحدث في الحياة ، صورا وردية ، وصور سوداء . . . ولا شيء أكثر ، لان فضايا شعوبهم لم تتمثل أمامهم ممكنة الحل ، ان جوركي اديب منظم بحق ، وهو واقعي لانه ابن الحياة حقا ، فقد عاشها طولا وعرضا ، وهو اشتراكي يؤمن بالحل الاشتراكي لمأساة شعبه ، ويؤمن بدور الادب الهام في ائارة الطريق أمام الجماهير ، انارنه بالصورة الواقعية وبالهدف المأمول . وفي ضوء هذه الخطوط الرئيسية لادب جوركي ، تدلنا روايته « الأم » على صدق التزامه بها . . .

كتب جوركي هذه الرواية في أعقاب ثورة الشعب الروسي سنة ١٩٠٥ التي انكسرت كمشيلتها ثورة سنة ١٩١٩ في مصر ، مع اختلاف الاسباب والاهداف ، واذ تنتكس الثورة تسري الروح الانهزامية بين الناس ، وتمتليء نفوسهم بالياس في امكانياتهم وفدريتهم على القيام بثورة جديدة ، بينما تهال الرجعية في محاولات يائسة للقضاء على فلول الثورة المنهزمة مستقلة كل ما تملكه من أجهزة لارهاب الشعب ولتشبيط

بحريتها وبأمنها وبارواحها في سبيل مثل أعلى ،

\*\*\*

وما أبعد الفارق بين « الام » وقصص غوركي الثلاث الأولى (أ) « ستة وعشرون رجلا وفنأة » و « أيزرجيل العجوز » و « تشيلكاش » . ان « الام » رواية ناضجة ، لكاتب وّاع ، يعرف هدفه بالضبط ، ويسير اليه . اما قصصه الثلاث الطويلة سالفة الذكر ، فهي قصص من واقع تجاربه ، من واقع حياته في المخبز ، وعلى ضفاف الفولغا ، وبين الحماليين واللصوص . ولكنها لا تقم الهدف ، فقصته « ستة وعشرون رجلا وفنأة » قصة صارخة ساخطة على الظلم الذي يحكم به الانسان على اخيه الانسان من جراء النظام الرأسمالي . انها تصور العمل الشاق في المخبز ، كالجناء في السجن يعملون ليل نهار بلا انقطاع ، في جو حار خانق تنعدم فيه التهوية ، يعجنون ويخزنون الخبز الابيض ، ويأكلون هم الخبز الاسود ، ولا يعرفون للحم طعاما غير ما ينعم به عليهم صاحب المخبز « ونحن نعجن الدقيق ، ونصنع الكعك اليباس المملح المعجون بعرق اجسادنا ، ونكره عملنا كرها صاريا ، غير آكلين قط مما عملت ايدينا ، مؤثرين الخبز الاسود على الكعك المملح . » يعملون كالحيوانات اربع عشرة ساعة ، كما عمل غوركي من قبل في المخبز اربع عشرة ساعة في اليوم ، وينهارون نائمين بلا حركة الساعات التنبؤية من اليوم . لا يتحدثون الا نادرا ، واغنيانهم كالويل ، صرخات الم ، تنفجر بهنا حناجرهم بين الفينة والاخرى . ورغم هذه الحياة الكئيبة القاتلة ، فانهم جميعا يحبون بقلوبهم الطيبة وبحنانهم المخزون ، فئسة صغيرة خادمة في السادسة عشرة من عمرها ، يقدمون لها جميعا الكعك والخبز الابيض عن طيب خاطر ودون ما مقابل سوى الابتسامة البريئة ، والابتسامة . . كم يحتاجونها ، ويشترونها ، يشترون سعادتهم ، بابتسامة هذه الفتاة الصغيرة ، لم يمسوها باي اذى ، لم يخذشوا حياءها باية كلمة جارحة ، ولكنها خيبت امالهم ووقفت في الرذيلة ، فصمقوا في وجهها . . . وعادت حياتهم الكئيبة اكثر كآبة بدون هذه الابتسامة البريئة .

بينما « أيزرجيل العجوز » ، قصة اسطورية . انها حياته بين الحماليين البحارة ، على ضفاف الفولغا ، على صفحاته . لكنها خرافية ، رومانسية ، لا تمت للواقع بعصاة ، الا بافانصيص جدته التي حكاهم لهؤلاء الحماليين والبحارة . انها قصة تحلق في سماء خيالية بعيدة عن الارض الروسية التي يضج سكانها بالشكوى من مر الحياة وقسوتها . اما « تشيلكاش » ، فهي اول قصة طويلة كتبها غوركي بعد مطالبة الاديب الروسي « فلاديمير كورولنكو » له بان يكتب قصة طويلة بدلا من قصصه القصيرة المنسرفة التي غمرت الصحف الروسية آنئذ . وذكر غوركي انه كتب هذه القصة في يومين . ولا عجب ، فغوركي كاتب غزير الانتاج . ان « تشيلكاش » هو احد لصوص البحر ، الذين خالطهم غوركي صبيًا ، بل شاركهم سطواتهم . . . وتشيلكاش يسرق لكي يعيش ، ولانه ليس من المعقول ان يفني فواه مع عمال البحر ، كما فعل غوركي في شبابه ، ويحمل البضائع الثقيلة ويقابل الجليد والامطار والعواصف ، مقابل بضعة كوبيكات لا تكفي طعامه . ولكن تشيلكاش يعيش في داخله انسان شريف ، يرنو الى الارض الطيبة ، ويأمل ان يمتلك قطعة ارض في قريته ، يعيش من اجلها ويموت عليها ، ولهذا فقد ضحى بكل ما سرقه عن طيب خاطر لـ « جافريلا » المواطن الشريف الذي غسره به تشيلكاش ، واشركه في احدى سرقاته . لقد اعطاه كل مال الشركة ، رغم ان هذا حاول قتله ، اعطاه المال لانه قرر ان يعيش في القرية ويشترى ارضا ، ويتزوج . كم هي طيبة شخصيات غوركي الكادحة !!

\*\*\*

و « فوما غوردييف » ( ١٨٩٩ ) روايته الطويلة ، تصور حياة التجار ، الطبقة الجديدة الناشئة من بين العمال والفلاحين ، والتسي كونست

(١) صدرت ترجمة عربية لهذه القصص الثلاث بقلم الكاتب اللبناني منير البعلبكي .

هائلة تجد كل ما تطلبه وتشتهيه ، ولكنها مع كل هذا ، تركت هذه الحياة الهنيئة السهلة ، وراحت تسمير عشرات الكيلومترات على قدميها لتشارك في الاعداد للثورة ضد النظام القائم ، نظام ابيها . انها واقعيًا وماديا عدوة الثورة ، ولكنها تؤمن بفكرة الثورة رومانسيا ، تؤمن بحق هؤلاء الجياع في الطعام والحياة المتكافئة ، انها تشعر بطيبة الكادحين الفقراء ، ان حياتهم صعبة والظالم كذلك ، لكن فلوبهم طيبة ، لا يعرفون نفاق البورجوازية . و « ساشا » ابنة احد الاقطاعيين كبار ملاك الاراضي ، انها تترك اباها وطبقتها ، وتشارك العمال حياتهم المتقسفة وتورثهم . . . والحب بين الفتى الاوكراني « اندري » و « ناتاشا » ، وبين « بافل » و « ساشا » حب عجيب ، يستنكره الجميع ، حتى المحبون انفسهم ، انهم لا يعرفون الا بحب واحد ، حب القضية . ولا يجب ان يقف اي حب فردي في طريق حب المجموع وخبره . فتقول الام « ان حينا النسوي ليس حبا نقيًا اننا نحب ما نحتاجه لانفسنا . . كسل هؤلاء الناس يتالمون من اجل الاخرين الذاهبين الى السجن والى سيبيريا ، ويموتون . وفتيات صغيرات يمشن في الليل بعيدا جدا ، عبر الوحل ، عبر المطر والشج . سبعة فراسخ من المدينة لبيتنا . . من يدفهم الى ذلك ؟ ولماذا يفعلونه ؟ لان لديهم حبا عظيما نقيًا ، ولان لديهم الايمان ، الايمان العميق . . . وهذا الحب القوي يجعلهم يشعرون بان فترات السجن ليست سوى « اجازات دورية اجبارية » للاستجمام والدراسة . والايمان بقدره الانسان وتحكمه في مستقبله عند غوركي تدلنا عليه هذه العبارة « ان الافا من الناس تستطيع ان تعيش افضل مما تعيش لو ارادت هي ذلك . ولكنها تستمر في العيش كالحوش ، لا بل انها لنظن ان تلك حقا معيشة رائفة . اليوم يعمل المرء ويأكل ، وغدا يعمل ويأكل ، وتمضي كل ايام حياته ، وهو يعمل ويأكل فقط . ما الذي يشير الإعجاب في هذا ؟ انه ينجب بين الحين والحين اطفالا يسلمونه حتى يبدأون في طلب الكثير من الطعام ، وعندئذ يفضب فيلعنهم قائلا : « عجلوا واكبروا ايها الاطفال لقد حان الوقت لان تعملوا » . ويود لو ان يقلب اطفاله الى حيوانات اليفة ، ولكنهم يبدأون في العمل من اجل بطونهم ماطين حياتهم كقطعة من الكعك . ان الناس الوحيدين الجديرين بلقب « انسان » هم الذين يكرسون حياتهم من اجل تحرير عقل الانسان » (١) .

وقد ظلت عند غوركي من الفلاحين الروس تطارده . ففي شبابه طرد مع فلاح ثوري ( روماس ) من احدى القرى لعدم اقتناع الفلاحين بمبادئها الثورية ، وقد ظل يردد ان الفلاحين يتمسكون بالقيصر اكثر من اي طبقة اخرى ، لانه حرهم من ربقة النبلاء الروس . وفي « الام » لم تحرز الدعوة نجاحا يذكر بين الفلاحين بالقياس الى ثورية اهل المدينة .

والثوري بقدر واقعيته في « الام » ، الا انه لا يكثرث لاشيئا مادية كثيرة ، النقود مثلا لا تهم ، الطعام ، الملابس . . . كل هذه امور مادية تترف عنها شخصيات غوركي برومانسية . حتى الام نفسها بدأت تتغير بفعل تلك الافكار فتعلم القراءة والكتابة وتشارك في الاعداد للثورة ، وتدوس كثيرا على عواطفها نحو ابنها في سبيل الانسان .

وابرز ما في الرواية ، الاصرار ، اصرار الانسان على العمل في داب من اجل المستقبل ، كما ان غوركي يحارب جهاز القضاء الذي يتولى عادة محاكمة المناضلين ، لقد حول غوركي قاعة المحكمة من محاكمة القضاء للمناضلين ، الى محاكمة المناضلين للقضاء ، وللنظام القيصري باكملة . وكل شخصيات غوركي في روايته « الام » شخصيات راسخة تعرف طريقها تماما ونسير فيه بلا تردد ، ولا يثنيها شيء عن عزمها . انها شخصيات تعيش في الواقع حقا ، ولكنها تؤمن بفكرة عيسا ، فكمرة رومانسية ، من اجل الانسان الروسي ككل ، انها شخصيات تضحي

(١) ظهرت الرواية « الام » ترجمت عربية كثيرة ، اخصبها ترجمة دار البيقطة السورية ، وترجمة مازن الحسيني واسماعيل عبد الرحمن ، واليهما ترجع بعض الميانات المستشهد بها في هذه الصفحات ، مع المقارنة بالترجمة الانجليزية للاصل الروسي .

بالكتب ، بينما التجار لا يؤمنون الا بالمال . وبيزهوف يظل يصرخ بصياح المثقفين في هذا المجتمع ، ويكتشف ان جمعيات الخير الاصلاحية المنتشرة في روسيا ، ليست الا جمعيات « لقتل روح الانسان » وللوس على كرامة الانسان « لقد سمعوني باسم الشفقة الانسانية » وكيف تكون القناعة في مثل هذا المجتمع الظالم ، « ان الشخص القانع بعاله ان هو الا خراج قنال في جسم المجتمع . . . » وبيزهوف شهمة وسط ظلام القيصرية ودجل وانتهازية طبقة التجار ، الذين يجعلون روح المدينة كمستنقع مليء بالمياه الآسنة ، انه يؤمن بالمستقبل ، وباحتمية التطور الى حياة افضل ، حياة العمال والفلاحين . وها هو رأي « ليوبا » في « فوما » الابن الشرعي لطبقة التجار : « انت يا كاره البشر . . يا عدو الناس ! » .

وإذا افاق « فوما جوردييف » الى الحقيقة المرة مكتشفاً صياح الانسان الروسي العامل والفلاح « انكم بدلا من نحسين احوال العالم والارتقاء به قد انحطظتم به فجعلتموه شراكا وحفيرة . قدرة لصيد ضحاياكم . انكم قد تكونون رجال عمال . . الا ان كل ما فعلتموه هو جمع القاذورات والندس ونشر التنن والروائح الخبيثة ! ليست لكم ضمائر ؟ الا اله لكم ؟ اجل . . ان الهكم المعبود هو الذهب ، اصما ضمائركم فقد استبعدتموها ، فاين استبعدتموها يا مصاصي الدماء ؟ انكم انما تعيون على حساب غيركم من الناس ، وانتم انما تعملون بايد غيركم . وكم من الناس ذرفوا الدموع من اعينهم دماء بسبب اعمالكم العظيمة التي تتبجحون بها ! » ، واذا بفضح ابن التجار حقيقتهم بهذا الصراخ العظيم ، ينقضون عليه بوحشية ويكبلونه بالقيسود وينهمونه بالجنون ويرسلون به بالفعل الى مستشفى المجانين .

وقد اعدت هذه الرواية اعدادا مسرحيا وعرضت على مسرح موسكو في عام ١٩٠١ .

وقد اعجب « تشيخوف » ايما اعجاب بهذه الرواية ، وكتب اليه قائلا : « اطبع المزيد من الرواية ، لا اقل من خمسة الاف او ستة الاف ، انها ستباع كلقمة العيش . وبوسعك ان تطبع الطبعة الاولى والثانية معا » . وبلغ نجاحها شأوا عظيما . وذكر غوركي (١) انه اجتمع باكثر من عشرة من ابناء التجار ، اصبحوا غير راضين عن حياتهم وطبقة هم ومهنة آباؤهم ، وانهم متالون من رنابة الحياة وافتقارها الى اي معنى ، وقال غوركي تعليقا على ذلك ان بعضهم سيبد مله في الفسق والعريضة بينما سيصبح البعض الاخر « غربانا بيضا » مثل « سافا موزووف » الرأسمالي الذي يساعد جريدة الثورة « الاسكرا » بنشر اعلاناته على صفحاتها . والامر القريب حقا ان غوركي ظل يردد كراهيته لهذه الرواية في جميع رسائله لتشيخوف : « لست براض عن نفسي لاني اعلم بانني استطيت ان اكتب خيرا مما فعلت . ان قصة « فوما جوردييف » من جميع الوجوه خطيئة فاحشة ارتكبتها ، وهذا ما يكدر صفوي » . ( من رسالة الى تشيخوف في اول يوليو ١٨٩٩ ) (٢) ، وكقولته في رسالة الى تشيخوف ايضا في يونيو ١٨٩٩ : « اني في حالة نفسية مهيبة ، ومتعب الى حد فظيع ، وبصورة عامة لست على ما يرام . لقد اصبح « فوما » بطل روايتي ضربا من التمساح ، حتى لقد رأيت له ليلاة الامس في الحلم : راقدا في الوحل يشد على اسنانه ويصرخ غاضبا : « ماذا تصنع بي ايها الشيطان ؟ ما اصنع ؟ ساهنتم له وجهه . »

وعندما ذهب غوركي الى ايطاليا وعاش فيها ، لم يلفت نظره سوى العمال ، الكادحين . وهذا واضح في مجموعة قصصه القصيرة « حكايات من ايطاليا » .

وفي قصته « الاضراب » يحكي قصة اضراب سائقي ومحصلي الترام في نابلي ، وثورة الجماهير الفاضبة عليهم وتدخل البوليس لاعادة

(١) On Literature - Selected articles - M. Gorky - p. 27-69 historicity

(٢) بين غوركي وتشبيخوف - دار اللقطة العربية - ترجمة جلال

فاروق الشريف .

ثروتها من السرقة والنهب والنصب ، ولما نالت حظها من الثروة ، تغمستها روح البورجوازية ، انها طبقة مغلقة ، طبقة جديدة ، تبرأ من اصلها وتحاول بشتى الطرق ان تكون بورجوازية متوسطة . في هذه الرواية يشرح غوركي البورجوازية ، المتوسطة ، نشأتها ، وانتهازيتها ، وحياتها ككل .

« فوما » ابن لاحد هؤلاء التجار « جوردييف » الذين كونوا ثرواتهم من اعمال لا يقرأها الضمير ، فقد كان جوردييف هذا مجرد عامل يتزح المياه من قاع الصنادل التي يمتلكها نري روسي وكان يؤمن بان الشخص القوي هو الذي ينتصر على ضميره ، ويدوس عليه ليصل الى غايته ، انه شخص ميكيفيللي ، يصل الى غايته بشتى السبل ، ومهما تعارضت مع المثل والقيم والاخلاق النبيلة . ونهكذا وصل بالعقل في سن الاربعين الى ما يبتغيه من رضاء وجاه ، « بفش الناس ، وخذاعهم » . وقد انشأ جوردييف ابنه فوما على الايمان بمبادئه الانتهازية ، واحتراف العمال ، والبعد عنهم ، لانه سيدهم ومالكهم . ان جوردييف انسلخ من صفوف الطبقة العاملة وصار فوقها ، يمسك برقابها ، ويهلكها ليتزايد هو ثراء . واذا افاق « فيم » احد عماله لينبه زملاؤه الى هذه الحقيقة ، ان جوردييف يسمن ويشري من مص دماهم ، وانه مصاصي دماء ، بخروسه جوردييف بصفتاه . انها قصة تفضح انتهازية طبقة التجار ، الطبقة الخطرة الناشئة من تطور المجتمع الروسي من مجتمع اقطاعي الى مجتمع بورجوازي . وهذا شعار هذه الطبقة يذكره غوركي على لسان « جوردييف » قائلا لابنه « فوما » (١) : « يجب ان تعرف متى تستشعر الرحمة . . واول ما يجب عمله ، هو ان تنظر الى الشخص وماذا ينطوي عليه ، وما قيمته ، فاذا وجدت انه قوي وغني ، فلا بأس من ان تدرك الرحمة من اجله وان تبذل له العونة والساعدة ، اما اذا كان ضعيفا فابصق عليه وادر له ظهره . . » ، وهكذا كانت تتعامل فئة التجار ، تلك الفئة الناشئة ، التي لا تؤمن الا بالاحيل والالاعيب ، ولا تؤمن بالثقافة ، فالتكث والتعليم للشحاذين فحسب .

وفي هذه الرواية فلق المثقفين في شخص « ليوبا » و « بيزهوف » واحتقارهما للاستقراطيين ، فتقول ليوبا « اني لا يكاد ير علي يوم حتى ينضح لي ان الحياة شيء شاق مرير . فانا مثلا . . . ماذا يكون من امري ؟! ازوج ؟! ومن ؟! تاجرا يقضي وقته كله في سرقة الناس ، وفي السكر ، وفي لعب الورق ؟ كلا . . ان هذا لن يكون ابدا ! » ان غوركي شخص فلق ايضا ، انه يعي تماما مساوىء الحياة الروسية ، ولكنه لم يعرف لها حلا حتى ذلك الوقت (عام ١٨٩٩) . لذا فانه يصرخ في هؤلاء التجار بلسان ليوبا ، محدثة فوما جوردييف : « انا اكرهك . . اكرهك انت بالذات . . انت ؟ من انت ؟ ومن عسى ان تكون ؟ شخص خرج لا يعرف شيئا في الوجود . ما الدور الذي سوف تؤديه في هذه الحياة ؟ وماذا في وسعك ان تقدم من خير للآخرين ؟ » . كل شيء في نظر التجار يجب ان يؤدي الى الكسب المادي ، الى مزيد من الثراء ، حتى عندما ينبرج جوردييف بخمسة وسبعين الف روبل من اجل الخير ، لانشاء ملجا للشحاذين والمنسولين ، انه يردد ان الكوبيك يعود اليه بروبل ، انها دعابة حققة ، تعود عليهم بالخير ، كل هذه التبرعات لتكوين رابطة بين التجار والادارة الحاكمة . والمدبرون من هم ؟ انهم ملاك الاراضي البديرون الذين لجأوا الى الوظيفة بعد بيعهم اراضيهم . . ان هذه التبرعات ليست الا من قبيل التطلع الى السلطة ، لتنال طبقة التجار الاثنتين معا : « المال والسلطة » . ووسط هذه الدوامة من طمع التجار واحتقارهم للابدي العاملة ، تنطق « ليوبا » الفتاة المثقفة بافكار غوركي متفنية بحب الانسان ، مؤمنة بمستقبله ، منبهة الى الوضع الخطيء للانسان الروسي في مجتمع القيصرية ، فتردد طوال الرواية : « اريد ان يحيى كل انسان سعيدا . . مستكفيا . . وان يكون الناس جميعا على قدم المساواة . . ان كل انسان يحتاج الى الحرية بقدر ما يحتاج الى الهواء ، ولا بد من المساواة في كل شيء » . وليوبا تؤمن

(١) فوما جوردييف - ترجمة فقيده الادب العربي دريني خديبة .

تسيير العربات ولكن المصيرين القوا بانفسهم على قضيب الترام ، وتساقطت بجانبهم الجماهير تمنحهم تأييدها ، أن الجماهير الفاضية أصبحت تتساقط بمرح لتشد أزر المصيرين ، واذا لم يتمكن الجنود من إعادة تسيير الترام فوق الاجساد البشرية ، ونجسح الاضراب ، عادت الحياة الى مجاريها ودارت عجلات الترام .

وقصته « اطفال بارما » امتداد ايضا لفكرة الايمان بالاضراب . ان عمال بلدة « بارما » مضربون ، وقد طال اضرابهم دون ان يرصخ اصحاب الاعمال لمطالبهم . واذا امتد بهم وقت الجوع حتى اصبح يخشى على حياة اطفالهم الابرياء فقد ارسلوا بهم في قطار الى ميناء « جنوة » ، وحيث يطل نمثال « كولمبس » مكتشف العالم الجديد ، على الجماهير المتلهفة لتلقي الاطفال . وقف القطار ، وبخاطف المنتظرون الاطفال بحب ومرح ، وارتفعت صيحات الايمان بالمستقبل ، « تحيا ايطاليا » ، « يحيا غاريبالدي » ، « يحيا ابطال بارما » . انها لمسة انسانية ، بقدر ما هي دافع قوي للجماهير المتطلعة الى مستقبل افضل ...

ويتفجح من هاتين القصتين مدى حب غوركي للشعب الايطالي ، وايمانه بنضاله وبروحه المرحة ...

وقصته بمنون « ازهار » ، لوجه تصويرية رائعة تمثل الحياة على الشاطئ الايطالي ، واني اميل لتسميتها لوحة اكثر منها قصة قصيرة لعدم استيفائها شروط وشكل وبناء القصة القصيرة .

اما قصته « النفق » فليس بها اي اثر لايطاليا ، انها قصة انسانية حقا يمكن ان تحدث في كل مكان من ارضنا ، قصة شديدة بقدرة الانسان ، وسطوته على الطبيعة ، قصة العمال الكادحين الذين آمنسوا بقدرتهم البشرية ، فراحوا ينحنون الجبل ، غير آبهين لصخوره ، او للخرافات التي يشيعها جيل آباءهم واجدادهم عن العالم السفلي .

انها قصة متسقة مع الخط الابوي والفلسفي لكسيم غوركي .

\*\*\*

اما قصته الطويلة « مخلوقات كانت بشرا » فهي قصة المشردين النساء الذين كانت تعج بهم روسيا ، والذين كان غوركي نفسه واحدا منهم ، وقد حكم حياتهم وصورها فعلا كفرد عاش حياتهم ، فبين مدى الفاقة التي تطبع حياتهم بطابع الحرمان من كل شيء ، حتى من ادميتهم ، وهذا واضح من اصراره على اطلاق اسم « مخلوقات كانت بشرا » عليهم ، وهم رغم كل بؤسهم وحرمانهم من ابسط مظاهر الحياة الادمية ، مسن الماوى والمآكل .. ورغم كل ذلك يعيشون ليومهم بلا هموم ولا مشاكل معقدة .. وقد كان المشردون اولى الفئات التي لعبت دورا اساسيا وصارت محورا هاما ندور حوله كتابات غوركي الاولى ...

وقد حلل غوركي الاسباب الدفينة الدافعة الى قسوة الحياة الزوجية في القصة الطويلة « الزوجان اورولوف » ، اورولوف الاسكافي البسيط الذي تقادمه زوجته « ماترينه » شظف العيش في قبو تتعدم فيه النهوية وتفوح فيه رياح العفونة والقتارة . انهما يتبادلان الحب ، ورغم ذلك فانه لا يكف عن ضربها بعنف ، وهي ايضا تزيد من حدته وتعانده ، فتستنزفه ليعاود ضربها ، ثم يعود قلبه الطيب فيقبلها في ود وحب .. وقد أوضح غوركي بصراحة ان مرجع هذه القسوة ، انما هو عائد الى قسوة الحياة ذاتها ، الى العذاب الذي يمانيه اورولوف في سبيل اعالة زوجته .. الى انعدام اي هدف مشترك ، الى الحياة القذرة البائسة الفارغة التي يعيشانها .

ولكن الكوليرا التي تحمل الموت الى الناس في روسيا ، تحمسل معها العمل والنظافة للزوجين في مصحة ، يصارعان فيهما الكوليرا وينتزعان الحياة من برائتها المحكمة على ارواح المرضى .

ان النقود والنظافة والاكل الجيد اوجدت لهما هدفا انضل في الحياة . لذا فقد كفت الحياة الزوجية عن قسوتها ، وامتنع الزوج عن ضرب زوجته ، واصبح لكل منهما عمل بعيد عن الاخر - رغم وحدة المكان - الا ان ضميره مستيقظ . انه يربح من موت الاخرين ، انه يفقد في كل يوم صديقا له بين يديه ، انه يود لو كانت الكوليرا رجلا فيقتلها ، مع يقينه بان في ذلك القضاء على مصدر الرزق الوفير نسيما بالنسبة

الى حياته المعذمة السالفة ، ان ضميره يعذبه ، والموت يخطف من بين يديه اصدقاءه ومعارفه ، وعادت الخمر تسلبه وعيه ، وعاد يضرب زوجته ، ولكنها اصبحت انسانا اخر ، انسان كادح له حقوق ، ويايى المدلسة والاهانة والضرب ، لذا فقد افترق الزوجان ، كل في طريقه . لقد عرف غوركي بحق مصدر الشقاء الانساني ، في عذاب الحياة وبؤسها .

\*\*\*

آمن غوركي بالاشتراكية لخير الانسانية ، لا لقيدها ، وهاجم رجال الدين ، تجار الدين من اجل الدين ، وحبيا في الله وفي الشعب ، وكان هذا الايمان المطلق بالله وبالشعب ، هو مصدر فلق لحفظة النصوص الاشتراكية وعبدة الاوثان ... وايمان غوركي بالله بوجوده وقدرته ونجده ، واضح في كل كتاباته ، ولعل افاصيص جدته الدينية وراثيلها ، حفرت في اعماقه وقلبه هذا الايمان بلا مزعزع له . ان غوركي يعرف ان الله خلق الانسان وبرك له ارادته ليختار الخير والشر ، وان الشر والشيطان موجودان في نفوس البشر المستقلين والسيطرين ، ورجال الدين هم الذين يستغلون الدين استقلالاً سيئاً بيث تعاليم مفرضة بين صفوف الشعب لصالح الطبقات المستقلة ، التي يدخل بينها حتما كبار رجال الدين انفسهم ، بمصالحهم الطبقية . وفي روايته التي نقلها الى العربية اديب المهجر « نظير زينون » بعنوان « ابن الله ، او اعترافات ابن الشعب » (1) يقول على لسان « لاريون » : « لا ينبغي ان تتكلم عن اعمال الشيطان وانما عن القسوة والعنف ، الخير والشر هما في طاقة البشر ، اذا اردتم الخير فارادكم ناتي بالخير ، واذا شئتم الشر ، فمسيئتمك تنج الشر ، الخير مصدره انتم ، والشر مصدره انتم ، وذلك لان الله لا يرغمكم على اقرار الشر او صنع الخير ، لقد خلقكم بارادته احرارا مستقلين ، واحراراً مستقلين تصنعون ما يحلو لكم ، اما الشيطان شيطانكم الذي نتحدثون عنه فهو البؤس ، نعم هو البؤس والجهل شيطانكم هو ظل الشريعة العاتية المستبدة في القلوب! ان الخير انساني ، لان الانسانية مصدرها الله ، اما الشر فلا يأتي عن الشيطان ولكن عن الحيوانية ، انظروا لماذا يصورون الشيطان بقرنين ورجلي ماعز ؟ ذلك لانه مبدأ الحيوان في الرجل ! ... » .

ورواية غوركي هذه نعد استعراضا لاراء فلسفية ، لتأملات داخلية ، في الحياة وفي الخير والشر ، ان غوركي يفوض هنا في النفس محللا ، اكثر منه كاتباً روائيا يحكي قصة تخدم كل سطر فيها غايتها ، انه يعاود ما فعله الفيلسوف اليوناني العظيم « سقراط » عندما التقط الحكمة اليونانية « اعرف نفسك بنفسك » من على مدخل معبد دلفي ، ليتخذها محورا لفلسفته .

وها هو غوركي يبدي رأيه في رجال الدين على لسان « لاريون » :

(1) « ابن الله او اعترافات ابن الشعب » - نشر دار اليقظة العربية بسوريا .

قريبا :

« الطريق الاخر »

خطوة جريئة في اسلوب الرواية العربية الحديثة

بقلم : سعيد فرحات

« .. ان الكاهن ورئيس الشرطة يستحقان الزج في السجن جزاء هذه الخديعة ، انهما لم يتورعا عن خدمة مصالحهما ونفوذهما تحت نقاب ديني ، وقاما يوطدان اركان الدين في قلوب البشر ارضاء للمنافع الشخصية ! .. »

وانه ليرى « ان الموت سر مجهول ايضا ، وانا ابحت عن حل اسرار الحياة » .

انه يتهم رجال الكنيسة باقتسام سرقة ونهب اراضي الفلاحين : « قال لي الكاهن : حموك وانت لصان خبيثان لقد سرقتما الكنيسة وانتزعتما منها « حقل الاجارو » مع ان هذه الارض تخص الابرشية على ما يعلم الجميع وقد عاقبكما الله عقابا شديدا وانزل بكما البلايا جزاء هذه السرقة . فرددت كيده الى نحره وقلت : هو ما تقول ، ولكن اذا كنا قد انتزعتنا الحقل ظلما وعدوانا ، فانت قد سبقتنا الى السرقة ، كانت الارض ملكا للشعب ولكنك انت صممتها الى الابرشية وغصبت حقوق الفلاحين ... » .

انها رواية اشبه برباعيات عمر الخيام ، كاعترافاته ، كخطياه ، كتوبته ...

« ان البشر يجزئون الله اجزاء مختلفة طبقا لحاجاتهم ، وميولهم . فالله عند البعض صالح كلي الرحمة ، وعند سواهم قاس وظالم ، اما الكهنة فقد جعلوا من الله خادما لهم ، واذا شكروا له ما منحهم من سعة العيش والرفاهية فبحرق البخور ، ولاريون وحده كان يرى في الله عظمة لا تحدها المقول ولا تدركها الاذهان ... » . وفي بحثه عن الطريق الى الله ، الى الخير والحق ، لجأ الى احد الاديرة ، فماذا وجد : « .. ورأيت ايضا ان ادارة الدير لا تختلف عن ادارة احدي المزارع او الاملاك ، رأيت في الدير كل انواع المتاجر ، فالحطب يساع والاراضي تؤجر ، والخراج يجبي على الصيد في البحيرة والفواكه والبقول تعرض للبيع ... الخ . » وكان في اصطبل الدير ثمانية عشر حصانا ، اما عدد الاخوة فيبلغ مائة وخمسين ، اغلبهم احدات ومجنهون ، اما الكهول فقليلون وهم كدر الرماد في عيون الزوار والحجاج ، وكان الرهبان يشربون المسكرات ويفازلون النساء ويلهون ، فالاحداث يتسللون ليلا من الدير الى القرية ، والطاعون في السن يستقدمون الصبايا الى مخادعهم بحجة الفسيل ، ولا جدال ايضا في انهم يتمتعون ببعض الزائرات ... » .

صدر حديثا :

# الأرض بايامي

مجموعة قصص بقلم :  
محمد عبد الولي

اول مجموعة قصص يمنية تصور  
المجتمع اليمني وترهص بثورته الجيدة

دار الاداب

في حياة غوركي شيان اساسيان ، الناس والكتب ، فان حياته بين الناس في الحضيض ، ومطالعته الواسعة للكتب هي التي جعلت منه ذلك الاديب العالي ... وقد مرت في بداية حياته اوقات كان يقضي فيها الليل ساهرا حتى الصباح منكبا على القراءة في ضوء شمعة يتراقص بوهن ، ومع ذلك فلم يكن يقرأ سوى الروايات التافهة التي تفزو عالم الجنس ، بكل فخر وشوق . وقد أسف غوركي فيما بعد لهذه القراءات التافهة غير المنظمة ، ولعل هذا ما جعله يصور « فرانكا اوليسوفا » بطله قصته الطويلة بهذه الصورة الصادقة ، التي صادفها في حياته عند زوجة الخياط الفاتنة التي اعارته تلك الروايات العاطفية الجنسية ، وعند سيده راقية خلفتها في اعارته الكتب ، ابان عمله خادما في احد المنازل .

ان « فرانكا اوليسوفا » فتاة رائعة الجمال ، ابنة كولونيل ، يمتلك مئات الافدنة من الاراضي افسدتها الروايات الفرنسية التي خلقت في مخيلتها صورا عجيبة للبطولة ، « ان المجرمين في الروايات هم الذين يلذون لسى جدا ، اولئك الذين يحكون بطريقة لبقة كل انواع شباك الغدر والوقية ، يقتلون ويدسون السم ، انهم اذكاء اقوياء .. وغندما يقبض عليهم في النهاية يتملكني الفضب ، حتى ان الدموع تظفر احيانا من عيني . العالم كله يكره اللص ، العالم كله ضده ، وهو ضد الكل ! هاك بطلا ! اما الاخرون اصحاب الفضيحة ، فيصبحون مفتاء سباعة ينتصرون ... »

انها من النبيلات الروس الحق التي تنبأه بضرب خادما المعجوز بالسوط ، ولا نرى في ذلك الا عملا فاضلا ضروريا لحياته ، انها تحنقر الفلاحين ، لانها تضيق بطلباتهم الكثيرة ، انها تحنقر الكتاب الروس لانهم يقولون الحقيقة ، وما حاجتها الى الحقيقة ، انها تريد ان تعيش في روايات تبعدها عن الحقيقة ، روايات غريبة ، بوليسية ، جنسية ، انها تريد ان ترى شواذ الناس ، انها لا تؤمن لا بالحب ولا بالخير . وايبوليت الاستاذ الجامعي المتقف الثوري ، الذي يؤمن بنقيض ما يؤمن به فرانكا بحكم نشأتها الطبقيية يحاول جاهدا ان يصل معها الى اسس للمناقشة الى الحقيقة ، بلا فائدة . انه يحاول ان يبين لها المسلمة بان الناس متساوون في الحقوق والواجبات ، ولكنها ترفضها بعنجهية ارسنقراطية « المويك ( الفلاح الروسي ) هو الذي يجب ان يعمل ، وانت عليك ان تعلم ، والحاكم عليه ان يراقب الناس ليرى ما اذا كان كل واحد منهم يقوم بما يتوجب عليه ... لقد قلت ان الصالح العام هو ان يتساوى الناس جميعا ، هذا غبن ! والدي الكولونيل ، كيف يكون مساويا « لنيكون « المويك ؟! » (1) .

ويخيل لمن يطالع هذه السطور انها رواية نقدية خطابية . ولكن الحقيقة ان غوركي حاك هذه المناظرات الرائعة في ثوب ادبي بديع ، وفي وصف دقيق لحياتة الارسنقراطية « فرانكا » اشبه باهتمام « اميل زولا » و « انطون تشيخوف » بادق التفاصيل . ان الصنعة الروائية في هذه الرواية قد حيك بفن عظيم . لقد شرح غوركي بفته العظيم هذا ، الارسنقراطية الروسية ، وبين مدى احتقارها للشعب ، لقد اغمس روح الفنان ليخرج عملا روائيا في صالح الثورة ، ولخير الشعب . ان فرانكا وايبوليت ، لم يلتقيا في نهاية الرواية ، رغم كل امكانيات اللقاء العاطفي ، ولكن غوركي بصداق الفنان رأى ان ذلك مستحيل . ان فرانكا ابنة مخلصه لطبقتها ، وللنظرة الطبقيية الضيقة التي تنبأه بجلد الشعب واحتقاره . لقد حاول « ايبوليت » ان يخرجها من عالمها الضيق الضجر ، ولكنه اخفق ، لان غوركي اراد ذلك ، اراد ان يبين ان الارسنقراطية الروسية ستظل بمنأى عن اية محاولة فكرية لاقناعها بالتنازل عن امتيازاتها . ان السنقبرل بيد « ايبوليت » ، بيد الذين يؤمنون بالناس البسطاء ، بالمساواة ، والحرية ، والثورة كطريق لنيلها .

احمد محمد عطية

القاهرة

(1) فرانكا اوليسوفا - ترجمة الاديب السوري : حنا مينه .